م1: النهضة

تمهيد:

لا شك أن الحديث عن التيارات الفكرية الحديثة والمعاصرة، وخاصة بما أن هذه الأخيرة أغلبها غربية المنشأ، يدفعنا إلى التأريخ لبداية ظهورها، أو على الأقل التركيز على نقطة البداية. وعلى هذا الأساس فإنه لا يمكن الحديث عن التيارات الفكرية الحديثة والمعاصرة، دون التأريخ لمرحلة تاريخية حاسمة عاشتها أوربا، ويتعلق الأمر هنا بعصر النهضة.

1ــ القرون الوسطى:

ينبغي الإشارة منذ البداية إلى أنه لا يمكن الحديث عن النهضة أو عصر النهضة دون الحديث عن الفترة التي سبقت هذه المرحلة التي عاشتها أوربا، وهي ما يسمى بالقرون الوسطى، وذلك من أجل فهم التحوّل الذي حدث في أوربا وحجم التغيير الذي أتى عليها بسبب النهضة.

يقصد بالقرون الوسطى تلك الفترة الزمنية التي عاشتها القارة الأوربية في مرحلة من مراحلها التاريخية، والتي "تبلغ نحو ألف سنة، تبتدئ من سقوط الدولة الرومانية الغربية سنة 476م على يد الجرمان، وتنتهي بسقوط الدولة الرومانية الشرقية سنة 1453م على يد الأتراك، وبديهي أن هذا التحديد بالسنوات هو اصطلاح تاريخي فقط، وإلا فإن الواقع يثبت أن بذور القرون الوسطى ظهرت في الدولة الرومانية منذ القرن الأول للمسيح، كما أن هذه لم تنتهي بسقوط القسطنطينية"[1].

[1] : سلامة موسى: ما هي النهضة، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، ط1، القاهرة، مصر، 2012، ص11.

كما ينبغي أيضا أن نفرّق بين القرون الوسطى و"القرون المظلمة"، إذ إن الكثيرين يسوّون بين المصطلحين، في حين أن "المعمول عليه أن تطلق صفة الظلام على السنين الخمسمائة الأولى، أي من سنة 476م إلى سنة 976م، لأن هذه الفترة كانت فترة الركود الفكري، أي بعد ذلك نجد بوادر النهضة وبواكيرها"[1].

يمكن عموما أن نصف القرون الوسطى، بالقول إنها تلك الفترة التاريخية التي عاشت فيها الانحطاط والضعف في كل المجالات، وخاصة على الصعيد الفكري، ويُرجع الكثير من المفكرين السبب في هذا التقهقر إلى الكنيسة، التي كانت صاحبة السلطة أنذاك، والتي كانت تستمد قوتها من الدين كي تمارس سيطرتها وجبروتها، حيث سعت دائما إلى السيطرة على الإنسان والعمل على تقييده بالغيبيات، وذلك من أجل بسط سيطرتها، وهو الأمر الذي تمّ لها، ودام لها لفترة طويلة، فكانت وراء تأخير أوربا عن ركب الحضارة، بكل ما تعنيه هذه الكلمة الأخيرة من معنى.

2ــ النهضة:

يقصد بعصر النهضة تلك المرحلة التاريخية التي عاشتها أوربا في القرن 16، أي فترة ما بعد العصور الوسطى مباشرة، والتي دامت حوالي قرن من الزمن، "وهو العصر الذي يبتدئ برحلة كرستوف كلومب الأولى في العالم الجديد عام 1492 وحروب إيطاليا سنة 1494، وينتهي بين وفاة إليزبت ملكة إنكلترا سنة 1603 وموت هنري الرابع ملك فرنسا سنة 1610"[2]، إلا أن هذا لا يعني أننا لن نجد بعض مظاهر القرون الوسطى في ثنايا القرن 16، ذلك أنه "ليس في سياق التاريخ واستمراره انقطاع للحوادث البشرية، بل إن هذه

---

[1] : المرجع نفسه، ص11.

[2] : نور الدين حاطوم: تاريخ عصر النهضة الأوربية، دار الفكر، ط1، دمشق، سورية، ط1، 1968، ص05.

الحوادث تجري في تطور بطيء مستمر. وقد يقع أن يحدث ما يؤخر سيرها، غير أنها لا تلبث أن تعاود الكرة وتستأنف تقدمها ولو ببطيء وخجل"[1].

لقد حدثت في عصر النهضة تحولات جذرية في أوربا وتبدلات عميقة، نتيجة مجموعة من الأحداث العظيمة وقعت حينها، وأبرز ما يميّز هذه الأحداث هو النزعة الثورية التي برزت كميزة ظاهرة طغت على كل المجالات (الفكر، الدين، الأخلاق، السياسة، الاقتصاد...).

إن أبرز تحوّل طرأ في أوربا في عصر النهضة، هو تغيّر نظرة الأوربيين إلى الحياة نفسها، حيث أصبح ينظر "إلى هذه الدنيا كأنها الغاية التي ليس وراءها غاية تُخدم، وإننا نحن البشر يجب أن تكون لنا آداب وفلسفات وعلوم لا تمتّ بأي صلة إلى الغيبيات، وإن علينا أن نعتمد على أنفسنا في تحقيق السعادة على هذه الأرض نفسها، وألا نزهد عليها إيثارا عليها للعالم الثاني، كما هي النظرة الغيبية"[2]، في إشارة واضحة إلى ضرورة تجاوز كل ما كانت تروج له الكنيسة من أفكار رجعية، وما أدى إليه هذا الأمر من تقهقر نتيجة ربط الحياة البشرية بالغيبيات، ولذلك ركّز الفكر النهضوي على شيء واحد هو "البشرية"، في خطوة نحو تحرير الإنسان، "أي إن البشر أو الإنسان، يجب أن يشتغل ويعتمد على نفسه في هذا العالم، ويعمل لحضارته وسعادته في جراءة وفهم، إذ ليس له في هذا الكون كله ما يعتمد عليه سوى عقله، وليس له عالم آخر يمكنه أن يطمح في تحقيق سعادته فيه"[3]، سيرا وراء جعل مصير الإنسان مرتبطا بواقعه وحاضره وما يبذله من جهد، في اتجاه وضع قطيعة مع ما كان سائدا في القرون الوسطى، وخاصة مع أبرز سمة ميّزت هذه الأخيرة وهي سمة الغيبية.

---

[1] : المرجع نفسه، ص05.

[2] : سلامة موسى: ما هي النهضة، ص16.

[3] : المرجع نفسه، ص16.

3ــ الثورة في فكر النهضة:

تعد الثورة والإصرار على التغيير أبرز ما ميّز عصر النهضة الأوربية، ويقصد بالثورة هنا مناهضة ما كان سائدا والسعي وراء تجاوز كل ما ميّز القرون الوسطى على كل الأصعدة.

3ــ1ــ الثورة الفكرية:

لا ينبغي إنكار أن الثورة الفكرية في القرن 16، كانت في بدايتها عودة إلى القديم بغية التعرّف على الحركة الإنسانية في العصر القديم، في خطوة نحو النبش في تراث القدماء، وفي الجانب الديني سعت إلى إعادة الدين المسيحي إلى نقاوته القديمة الأولى. إن عنت هذه الخطوة شيئا، فإنها تعني أن الانطلاقة الحقيقية في التغيير على الصعيد الفكري لم تنبع من الجماهير، بل من الصفوة المختارة، في إشارة واضحة إلى أولئك الذين تجاوزوا عصرهم، فهذه الفئة في حقيقة الأمر هي التي قادت التغيير الحقيقي في عصر النهضة.

لكن سرعان ما أخذ الفكر النهضوي يتجاوز التراث ويتنصل منه بفضل هذه الصفوة، فــ "كلمة علم تبدل معناها في هذا العصر، فبعد أن كانت تدل على التقليد أو الكنز المتوارث عند القدامى، أصبحت تدل على معرفة الكائن. وهذه المعرفة يكتسبها الإنسان بتأمله في الكائنات، ومثل هذا التفكير هو الثورة بعينها"[1]، ما يعني ربط الإنسان بحاضره والتركيز على منجزاته الآنية.

3ــ2ــ الثورة الدينية:

تلازمت التغييرات التي طرأت في مختلف المجالات في عصر النهضة في أوربا، مع تغيير جوهري في الجانب الديني، حيث أعاد الإنسان الأوربي صياغة مفهوم جديد للعقيدة،

---

[1] : نور الدين حاطوم: تاريخ عصر النهضة الأوربية، ص08.

في إطار الثورة على ما كان سائدا من قبل وما رسّخته الكنيسة، إذ تبنى "حرية الضمير أو الوجدان، وبعد أن كان الدين ولم يزل حادثا اجتماعيا، لأنه يوجد بين معتنقيه طائفة أو جماعة واحدة، أصبح حادثا فرديا وكنزا للمؤمن خاصا به دون سواه"[1]، إلا أن هذه الخطوة التقدمة كانت في نظر أصحابها ليس شيئا جديدا، "بل أرجعوا قيما قديمة عفى عليها النسيان، وجددوا بناء الكنيسة القديمة بعد أن أثقلته مع العصور أبنية أخرى، ويقولون إن البشرية المسيحية ظلّت سواء السبيل منذ ألف عام"[2]، في إشارة إلى وضع الدين في القرون الوسطى حين سيطرت الكنيسة على الأوضاع، فكانت خطوة نحو إقصاء كل وسيط إلى كلام الله أو إلى الكتاب المقدس...

3ـ3ـ الثورة السياسية:

كانت الثورة على الصعيد السياسي في عصر النهضة مبنية أساسا على أربع وقائع كبرى، تنبئ بميلاد عهد جديد في السياسة الأوربية، وهي:

ـ تشكيل الدولة الحديثة وفكرة القومية.

ـ تهيئة الفكرة الديمقراطية.

ـ عصرنة السياسة.

ـ تبدل العلاقات الدولية.

ولقد برز أكبر تغيير في هذه الآونة، حين أصبحت "سيادة الدولة قامت مقام فكرة السيادة الإقطاعية، وأن الملك ليس زعيم طبقة الإقطاعيين بل هو الأمير، وليس له تابعون

---

[1] : المرجع نفسه، ص08.

[2] : المرجع نفسه، ص08.

بل رعية"[1]، وهو يعني أن أوربا في هذه الآونة بدأت في ترسيخ مبدئ الدولة الحديثة ذات السيادة والاحتكام إلى شعب يسوسه رجل سياسي.

3ـــ4ـــ الثورة الاقتصادية:

تشكّل الثورة الاقتصادية الحدث الأهم في القرن 16، ذلك أن كل المجالات مرتبطة بعنصر الاقتصاد، وخاصة ذلك التغيير الذي مسّ أوربا الغربية في هذا الجانب بصفة خاصة، وذلك بفضل الاكتشافات البحرية التي ساعدت على نمو النشاط التجاري، وهو الأمر الذي حدى إلى البحث عن الذهب، كونه معدن صك النقود، وهو ما شجّع في الأخير على ظهور القرصنة.

[1] : المرجع نفسه، ص13.